

الدكتور عبد السلام المسدي

"التفكير اللساني في الحضارة العربية"

تونس، الدار العربية للكتاب، 1979

بقلم فكونية (العلوي)

لسانهم ، وبحثوا في اللغة كميزة للجنس البشري ؟
لقد بحث العرب كغيرهم في اللغة بما انها اقرب
شيء للانسان فهي الجسر الذي يصله بغيره . وهي
اداة التعبير عن كل حاجياته ورغباته . فاللغة كما
يقول الدكتور عبد العزيز الحياصي : « هي منا اكثر
مما لنا » .

ولكن الشائع هو ان التراث العربي لم يترك
لنا في هذا المجال الا دراسات محورها اللسان العربي
من نحو وصرف وبلاغة وعروض ... او نصوص تنجد
اللسان العربي باعتباره لغة اهل الجنان كما يذكر
ابن منظور صاحب (لسان العرب) في مقدمته :

« فان الله سبحانه وتعالى قد كرم الانسان
وفضله بالنطق عن الحيوان وشرف هذا اللسان
العربي بالبيان على كل لسان وكفى شرفا انه به
نزل القرآن وانه لغة اهل الجنان » .

او كما يذهب التوحيدى في (الامتاع والمؤانسة)
الى اعتبار انه سمع لغات كثيرة كلغة المعجم والروم
والهند والترك فلم يجد لهذه اللغات شيئا من نصوص
العربية .

لكن الواقع يثبت خلاف ذلك . فالتراث العربي

ان علم اللغة من اهم العلوم التي حظيت
على مر العصور باهتمام المفكرين ، واكبر شاهد على
ذلك التراث اللغوي الغزير الذي بين ايدينا ، لكن
الحديث عن اللغة اختلف باختلاف المناهج والاهتمامات .
فمن المفكرين من خاض في البحث عن اصلها ونشأتها ،
فنتساءل عن مصدر هذا الكلام الذي يتداوله الناس
ويتحاورون به : انراه هبة من لدن اله عظيم ام تراه
جاء نتيجة تواطؤ واصطلاح ؟ مثلاً تم الخوض في
مقاسة اللغة باعتبار انها ميزت الانسان عن الحيوان
وسبقت به الى اعلى مراتب المخلوقات . كما بحثوا في
مدى تعبير اللغة عن حقائق الوجدان الى غير ذلك من
المواضيع . هكذا نرى ان اللغة كانت في نفس الوقت
مادة البحث ووسيلته ومن ثم كانت صعوبة البحث
فيها وعسر الحديث عنها .

على ان الطرق لهذه القضية اختلفت من عصر
الى آخر ففي حين كان البحث يجول في متاهات غيبية
كالبحث في اصل اللغة مثلاً ، صار الاتجاه اكثر علمانية
فصار الاهتمام متجها الى ما يسمى بالدراسة الاتية
او الصومية للغة . ولنا ان نتساءل عن مكان العرب
التدامي من كل هذا . هل بحثوا في اللغة مجردة بقطع
الغطر عن الاصل والنشأة ؟ ومعنى هذا هل تجاوزوا

بختلف أنواعه وأشكاله يزخر بإشارات بل أحيانا
بجمل واضحة متناسقة تنظر الى اللغة باعتبارها
ميزة للإنسان بقطع النظر عن انتسابه وموقعه
الجغرافى .

فالمتمضى لأثار العرب يجد حديثا ضائبا عن
الفرق بين صوت الحيوان والإنسان . كما تعترضه
تفسيرات دقيقة فيما يخص الفرق بين الحديث
والعبارة واللفظ والقول والرمز والدلالة . كما يجد
البحث فى صلة اللغة بالفكر ... الى غير ذلك من
المواضيع التى تشغل بال اللسانيين المعاصرين .

فتمجيد العرب للسانهم واعتزازهم ببيانه وعمقه
وشموه وتقدسهم لنصهم الذى ذكر لهم بوضوح ان
الله هو الذى علم آدم الاسماء كلها لم يعقهم عن
اعمال العقل والخوض فى مسائل مجردة تخص اللغة
ككل لا اللسان العربى وحده . وتجدر الإشارة الى ان
اعتبار اللسان العربى اسما لسان لم يكن موقف
كل المفكرين قديما . اذ اتنا نجد من تنظن الى ان
اللسان العربى لا يفضل اى لسان آخر باعتباره
يقوم بوظيفة لا تختلف عن وظائف اللسان الاخرى .
وهذا بعد ثورة لا مثيل لها فى ذلك العصر الذى يجد
فيه العرب لغتهم وكيف لا يجدونها وهى لغة القرآن .
فقال ابن حزم فى كتابه (الاحكام فى أصول الاحكام) :
« وقد توهم قوم فى لغتهم انها افضل اللغات وهذا
لا معنى له لان أوجه الفضل معروفة .. وقد غلط
جالينوس فقال ان لغة اليونان افضل اللغات لان
سائر اللغات انها هى تشبه نباح الكلاب او نقيق
الضفادع وهذا جهل شديد لان كل سامع لغة ليست
لغته ولا يفهمها فهى عنده فى النصاب الذى ذكر
جالينوس ولا فرق » .

فملاحظ ان ابن حزم وغيره كثير قد تحرر من
تداسة اللغة بل اعتبرها وسيلة تخاطب كغيرها .
فاللغة مختلفة باختلاف الأزمنة والامكنة باعتبارها
اصطلاحية . ومن هنا يمكن ان نقول ان العرب بحثوا
خارج اللسان العربى وان كانت انطلاقاتهم منه .

وتطالعنا اليوم اول اطروحة دكتوراه تونسية
تمنحها الجامعة التونسية نالها صاحبها الدكتور عبد
السلام المسدي بملاحظة مشرف جدا .

وهى بعنوان التفكير اللسانى فى الحضارة
العربية . وتصدر عن الدار العربية للكتاب 1979 .

وقد اعتبرت لجنة المناقشة هذه الاطروحة
مغامرة فكرية ، ومنعرجا فى مسار البحوث اللغوية
الراهنة فى الوطن العربى . وتتمثل هذه المغامرة
فى خوض الدكتور المسدي غمار التراث العربى
الاسلامى بختلف أنواعه يستقره ويتقصى فيه
البعد اللغوي ويستنتج معادلات لسانية هى من
الاهمية بكان . ولعل ابرز الاستقراءات اللسانية
واطررها على حد قول الدكتور عبد السلام المسدي
« انها توجد فى غير التراث اللغوي فعلا من ذلك ما
ضمنه علماء الكلام فى مؤلفاتهم وخاصة عندما تطرقوا
الى قضية الاعجاز القرآنى وقضية صفة الكلام
ضمن صفات الله فى علم الكلام . كما نجد لعلماء اصول
الفقه استطرادات لسانية هى على غاية من الدقة
منشؤها ضبطهم لطرق استنطاق النص اللغوي
واستخراج الاحكام الشرعية منه . وفى المستوى
الثالث نجد مادة التراث الفلسفى وخاصة عند
المناطق . ومعلوم ان كل أبواب علم المنطق تتطرق
بكيفية او باخرى الى قضايا لغوية . فكان فلاسفة
العرب بحكم اصلتهم اللغوية وانتمائهم الحضارى
يمزجون بين التقدير الفلسفى الخالص كما خلده
اليونان والتقدير العربى اللسانى الذى يأتى
بالطرافة الكاملة مما لم يهتد اليه لا أرسطو ولا من
جاء بعد الحضارة العربية من اللاتينيين وليس هذا
قدحا فى اليونان ولا فى الحضارة الغربية لان خصب
الفكر العربى قد تولد من اقتضاءات حضارية
محركها هو التفكير الاسلامى بختلف قضاياها
العقائدية وغير العقائدية » .

وقصنا من الإشارة الى المضامين التى اعتمدها
الدكتور المسدي تبين ان الاطروحة انما هى تعامل
نعل مع التراث وليست نظرية مسبقة سلطت على
التراث تسليطا .

فالمؤلف ذو ثقافة لسانية واسعة خولته قراءة
التراث بمنظار لسانى حديث ، فتوخى الاستنطاق
والتحليل دون التسرع الى الاستنتاجات الاعباطية
او المسطرة . اذ انه يهتد على كل فكرة بنص من
التراث على غاية من الدقة والوضوح مما لا يترك
مجالا للشك أو التخمين .

هذا ولقد كان تفكير المؤلف فى المنطق تسليط
أضواء علم اللسان الحديث على التراث العربى فكانت
النية انجاز عمل يجمع بين مقولاتى الاصاله والحداثة .

فمنطقة الانطلاق من الناحية العلمية المنهجية « قد كانت بمثابة الفضول العلمي البريء الذي تستجبه تقاليد الأطروحات وخلال استنطاقنا للتراث العربي اكتشفنا أن وراء الفكر اللغوي العربي جملة من المقومات البدئية تخرج عن مجرد الانشغال في ضبط اللغة العربية إلى بسط نظرية حول الظاهرة اللغوية بصفة عامة من حيث هي معطى كونى إنسانى » .

وفي هذا المستوى لاحظ المؤلف أن اللسانيات المعاصرة في تاريخها للفكر البشري كانت تهمل — سواء عن سوء نية أو عنده — بصفة نظرية حظ الحضارة العربية من بلورة الفكر اللغوي عامة . فكان أن تساعل عن الدواعى التى دعت المؤرخين إلى تنز هذه الفترة وألتى تسبب انحصاما في تسلسل حلقات الحضارة الانسانية .

فعمل الدكتور المسدي يرمى إلى جملة في الغايات :

اولها : الخروج من مجرد الحديث عن التراث العربى وقبته إلى فك رموزه والتعامل الفعلى معه .

ثانيها : تجاوز الاشارات العابرة لحقائق علم اللسان في التراث العربى بغية بسط نظرية شمولية متكاملة .

ثالثها : سد الثغرة الاعتبارية في تسلسل الفكر الحضاري الانسانى .

رابعها : بسط المقومات الاولى لمطاء فعلى خصيب يقدمه الفكر العربى إلى الفكر الانسانى .

وتشتمل هذه الأطروحة على متن البحث وعدد من الملاحق كالمصادر والمراجع وفهرس الاعلام والمصطلحات والفهرس العام .

وينقسم متن الأطروحة إلى مقدمة وثانى عشرة مسألة تسبت على ثلاثة فصول .

فالمقدمة مدخل إلى حوافز البحث وفيها يتعرض المؤلف إلى عدة قضايا هامة منها : معنى العلوم الانسانية إلى الوصول إلى الموضوعية بموجب تسلط التيار العلمانى على الانسان الحديث . وكيف ادركت

العلوم اللسانية هذه الدرجة رغم الفترة الزمنية القصيرة التى نشأت فيها . وتناول كذلك موضوع الحداثة والتراث : وتبيان منزلة استلهم العرب لتراثهم التى هى بمثابة مولد التفاصيل الفردي الذي بانعدامه يبقى العرب في سجن الاخذ دون المشاركة الفعالة .

وتعرض المؤلف إلى النظرية اللغوية عند العرب والعوامل التى ساعدت على نشأتها :

والفصل الاول بعنوان الانسان واللغة وفيه :

المسألة الاولى : اختصاص الانسان بالظاهرة اللغوية .

المسألة الثانية : ما قبل اللغة

المسألة الثالثة : نظرية التوقيف الالهى .

المسألة الرابعة : التشريع الوضعى

المسألة الخامسة : المحاكاة الطبيعية

المسألة السادسة : نظرية النشوء والتناسل.

وتناول هذا الفصل التفكير الذي كان سائدا عند بعض المفكرين العرب في علاقة الانسان باللغة .

فالمتمق عليه أن ميزة الانسان عن الحيوان هى النطق ولا يخلو حد الانسان سواء اكان ذلك عن الفلاسفة أو المناطقة أو اللغويين من أبرز صفة النطق عند الانسان . فهو الحيوان الناطق وهو الحى الناطق إلى غير ذلك ...

لكن الاختلاف كان فيما يخص اصل اللغة فمنهم من يرى أنها هبة من الله باعتبار ان النص القرآنى ذكر أن الله هو الذي علم آدم الاسماء . ومنهم من يرى أن اللغة هى من اصطلاح والا لما تعددت اللسان عبر الامكنة والازمنة : فذهب البعض إلى أن اللغة فرضها الحكام على الرعية ليسهل التخاطب ، ومنهم من ذهب إلى أن رجال الفكر هم الذين كونوا اللغة وفرضوها على الناس ، إلى غير ذلك من الآراء التى يطلها الدكتور المسدي تحليلا ضائيا مستشهدا في ذلك بنصوص مختلفة من التراث.

وفي خاتمة الفصل الاول اشارات هامة تفيد ان علاقة الانسان باللغة قد فرضت في تاريخ الفكر العربى اشكالية مزدوجة اذ كانت المشكلة مركز تجاذب اعتبارين مختلفين احدهما لسانى وثانيهما مذهبى مقائدي .

الفصل الثاني : الموضوعة .

- المسألة الاولى : اعتبارية الحدث اللسنى
- المسألة الثانية : تحديد الموضوعة
- المسألة الثالثة : الموضوعة والعقد
- المسألة الرابعة : من الاعتبار والتلازم
- المسألة الخامسة : توليد الموضوعات
- المسألة السادسة : اكتساب الموضوعة

يبدأ هذا الفصل بتحديد كل من معنى « الموضوعة » والاصطلاح والفرق بينهما رغم ما يبدو فيهما من تشابه فمفهوم الاصطلاح يستعمل في منظور زمانى ، ذلك لانه يتطلب تصريحاً او تضميناً حضور مفهوم التوقيف .

أما متصور الموضوعة فانه قد استقل بنفسه في مناهج الطرق النظري عند اعلام التفكير العربى . ولا يسعنا التعبير ضده الا بئفيه « انعدام الموضوعة »

وفي مستوى المصطلح يتجلى الفارق بين المنظور الزمانى في مفهومى التوقيف والاصطلاح والمنظور الاثنى في مفهوم الموضوعة .

ويدور هذا الفصل حول تظن العرب الى مبدأ الموضوعة في اللغة واعتباطية الحدث اللسنى . اي أنه لا علاقة منطقية تربط بين الدال والمدلول سوى ما اتفق عليه اصحاب المجموعة اللسانية الواحدة .

وتتظنهم الى ان اللغة ما هي الا نظام علامات من جملة أنظمة اخرى مختلفة . وتبرز قيمتها في انها تعبر عن كل شئ بأيسر السبل . كما انه ليس للغة فضل على اخرى باعتبار ان كل قوم تواضعوا على نظام خاص من العلامات .

ثم خاتمة أهم ما ذكر فيها تظن العرب الى ان للانسان استعداداً فطرياً للكلام لكن ذلك لا يكفى دون تعلم وممارسة . وهو ما يؤول الى اعتبار اللغة موجوداً قائماً في ذات الانسان ينقذ حالاً تتوفر شرائط خروجه الى حيز الفعل .

الفصل الثالث : مقومات الكلام

- المسألة الاولى : الكلام والمكان
- المسألة الثانية : الكلام والزمان
- المسألة الثالثة : الكلام وفاعله
- المسألة الرابعة : الكلام والاضطرار
- المسألة الخامسة : الكلام والشمول
- المسألة السادسة : هوية الكلام

يتتبع المؤلف في هذا الفصل الفكر العربى في النظرية اللغوية من خلال صورة الحدث اللسنى المنجز فعلياً . فبعد ان سعى الى تبين نظرية العرب من زاويتين أحدهما : تفاعل الانسان مع الظاهرة اللغوية باعتباره منشئاً لها وناظراً في امرها ، والثانية نوعية الوجود الذى تتم به اللغة من حيث هي كيان في ذاته .

أما في هذا الفصل فالمؤلف يرمى الى تحتسب مواطن النظرية اللغوية بالاعتماد على الحدث المنجز فعلاً ومحاولة لضبط خصائص اللغة انطلاقاً من تجسّمها في حدث الكلام .

لذا نجد الحديث في هذا الفصل عن الصوت وخصائصه الفزيائية وأمّياز صوت الانسان عن تصويت الحيوان : وعن وصف الحروف ومبدأ الاقتصاد في الكلام ووظائف اللغة الى غير ذلك .

ويختم الدكتور المسدى مؤلفه ببيان مزايا اللسانية المعاصرة . اذ يرجع اليها الفضل في منه بالتصورات الفعالة والمنهجيات الاختبارية . ومعنى هذا انها هي التي زودته بالالات والاضواء التي استطاع بفضلها الكشف عن اغوار التراث العربى الزاخر . وهي التي كما يذكر الدكتور المسدى : وفرت سبل التمازج بين حقول المعرفة . وهي التي أوصلته الى مرتبة التاليف الشمولى . لكن هذا العمل القيم لن يبقى مديناً للسانية المعاصرة لانه سيدها بزاز جديد ويسهم في خلق آفاق للبحث عديدة . فليست العملية مجرد اخذ فحسب بل هي اخذ وتمازج وعطاء فحسب .